

التوسع العلمي في الأندلس

¹الدكتورة عصمت ناز

Abstract

Spain was the Glory of Muslims, seat of learning and place knowledge in all fields of life from conquest till downfall. It was a significant and a golden period not in the history of Islam but in world as well. All this essence of knowledge was due to the personal interests of kings and a large number scholars and their real research around the country. At that time this country was indeed the only developed country in the whole medieval Europe.

In this article I tried my best to explain the great contribution of Muslims in education, literature, art and design, poetry, agriculture, science and in living style. And they spread all this with the help of ruler's interest so I emphasize on it and throw light that it's very important for the improvement of any culture and society at any place.

¹ - رئيس قسم التاريخ والدراسة الباكستانية، عميد كلية الحضارة والفنون، جامعة النساء مولتان (باكستان)

التوسع العلمي في الأندلس

الدكتور ه عصمت ناز

فتح العرب المسلمون اسبانيا وقد حكموا وعاشوا لمدة طويلة ، وكان للمسلمين كما يبدو القابلية لتكييف أنفسهم للعيش في أي مكان يذهبون إليه ولهذا ففي اثناء اقامتهم الطويلة التي تبلغ نحو تسعمئة عام في اسبانيا استطاعوا أن يغيروا طرفهم وعاداتهم في اسبانيا نفسها وفي جيرانهم المسيحيين- بل كانوا أفضل من الاسبان من الناحيتين السياسية والاقتصادية فضلا عن كونهم متفوقين عليهم من الناحية الحضارية أيضا- وعلى الرغم من أن المركز السياسي و الحضاري لاسبانيا المسلمة كان في الجنوب، فقد تأثر الشمال بحكم الإسلام أيضا-

ويصدق ذلك كذلك على المغرب العربي المشهور الذي كانت الأندلس تشكل جزءا منه، وهكذا أصبحت المراكز السياسية والحضارية الإسلامية مصدر اشعاع إلى الأجزاء الشمالية من اسبانيا طيلة فترة حكم المسلمين وقد استمرت الحضارة العربية الاسبانية بالتأثير على المدينة الأوربية والفريقية حتى بعد ابعاد العرب عن اسبانيا، وساهمت في مجالات عديدة لقيام الحضارة الحديثة-

يعني حكم المسلمون أنحاء شبه الجزيرة الاسبانية قرونا واستطال حكمهم في الجنوب حيث قامت مملكة غرناطة زهاء ثمانية قرون، وكانت نظم الحكومة الإسلامية وتقاليدها الحياة الاجتماعية الإسلامية وكل ما هنالك من مظاهر الحضارة الأندلسية في التفكير وفي الفنون، وفي سائر مقومات الحياة العامة والخاصة كانت كلها تحدث أثرا في شبه الجزيرة الاسبانية في الممالك النصرانية المجاورة التي كانت كلها تتصل خلال الحرب والتسلم بجارتها المسلمة أوثق اتصال-

وكانت الاجتماع الأندلسي الذي فيها عدة عناصر والجنسيات أدى أعظم دور في تاريخ الأندلس الحضاري والثقافي والسياسي، وخاصة أصبحت حلقة الاتصال الوثيق في نقل المؤثرات الحضارية من فريق إلى آخر، وإن كان من المحقق أن هذه المؤثرات كانت أعمق وأشد انطبعا في

التوسع العلمي في الأندلس

اسبانيا النصرانية منها في اسبانيا المسلمة إذ كانت الحضارة الأندلسية يومئذ أرقى من نظائرها وأشد تفوقاً وازدهاراًⁱ. ولم ينقطع هذا التأثير القوي للحضارة الإسلامية في حضارة اسبانيا النصرانية، حتى في العصر الذي أخذ فيه نجم الدولي الإسلامية الأصول وتضألت رقعة الأندلس الإسلامية الصغيرة، كانت بالرغم من تضائل سلطانها الأقليمي والحربي تتمتع بحضارة رفيعة، وكانت علومها وفنونها وأوضاع حياتها الاجتماعية، ولاذات تحدث أثرها في جيرانها النصارى الاسبان.

وفي عهد المسلمين تمت انجازات كثيرة، وبقيت الحضارة الرائعة مستمرة بكافة التنظيمات والترتيبات والحياة النسانية ومظاهر الحضارة، كل ذلك انجاز رائع، وبعد هذه المدة شارك فيها المجتمع بكيئته حاكماً ومحكوماً عالماً ومتعلماً قائداً وسائراً في التطبيق يوجهه ويخدم أمته ومجتمعهⁱⁱ.

وقد استهوت طبيعة الأندلس الجبيلة مختلف العناصر فقد موا إليها من كل مكان في سائر العصور و الأزمان، فمن هذه العناصر الكثيرة تكون المجتمع الأندلسي بعد امتزاجه بها وحين استقر العرب في تلك البقعة من الأرض اختلطوا بسكانها قتلأثر وأثروا عليهم وتطلبوا ببعض طباعهم واتبعوا كثيراً من طرق معيشتهم في المأكل والملبس والسكن وبأختلاط النساء بالرجال وفي نظام الحكم وغير ذلك ولكنهم كانوا يتطلعون إلى امجاد آبائهم واجدادهم في المشرق ويعتبرونها المثال الذي يجب أن يجتدي به والقذوة التي يقتدى بها في مختلف نواحي الحياة، وإلى هذا يشير ابن بسام:

”إن أهل هذا الأفق أبو إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نعت بتلك الأفاق غراب أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا ضبادتوا ذلك كتاباً محكماً“ⁱⁱⁱ.

شعر الأندلسيون بسبب انفصالهم عن وحدة الإسلامية بالحياة النغزالية وأحسوا بالبعد عن الروابط الطبيعية التي تجمعهم مع شركائهم في الدين في بلاد المسلمين الأخرى وكانت بلادهم ترتبط بثقافة المسلمين وحضارتهم إلا انها تعارض سياستهم ولا تتفق معهم في الغاية والهدف وإذا لم تحدث حروب بين القوتين الإسلاميتين غير تلك التي كان يقصد بها ارجاع بلاد الأندلس للوحدة الإسلامية

التوسع العلمي في الأندلس

الشاملة، فإن ذلك لم يكن يعني حدوث نوع من التفاهم أو الانسجام بين الحكام المسلمين في الشرق و الغرب طول تاريخ، فسارت المنطقتان تبعاً لذلك في اتجاهات مستقلة متباعدة.

لقد كان من الطبيعي أن تتبع المنطقة بعد فتحها دولة الذين فتحوها أو الدولة التي فتحت بأسسها وهي الدولة الأموية بالشام وهذه كانت امبراطورية عظيمة الأثر في حياة العالم المعاصر لها وكان هذا يعني أن تصبح المنطقة كلها مجرد مقاطعة من مقاطعات التابعة للدولة الكبيرة، وهي مقاطعة تقع عند آخر نقطة البعد التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية في الغرب، فلم يكن من السهل إذاً أن تعرف الدولة عنها شيئاً مباشراً أو أكيداً.

وقد كان هم حكام الأندلس من أمراء وخلفاء وتقليد العباسيين ومنافستهم في كل شيء حتى أنهم عمدوا تسمية بلدانهم بأسماء مدن المشرق فخرناطة دمشق، واشبيلية حصص إلى غير ذلك، ومن أسبأ يلقبون أنفسهم بألقاب مشرقية كالرشيد والمأمون والمتوكل ويعدعون الشعراء الأندلسيين بأسماء شعراء المشرق والقابهم، فأبن زيدون البحتري، وابن هاني المتنبّي، وهكذا وكان الاتصال بين المغرب والمشرق وثيقاً فالر حالة المغاربة كانوا يفدون على المشرق للتزود من العلوم والأدب وللتعرف على مختلف فنون المعرفة، كما رحل كثير من المشاركة إلى الأندلس.

والرحلة إلى "المشرق الإسلامي" دوافع عدة بجانب الدافع العلمي أهمها الحج والتجارة وهي لم تكن تخلو من طلب العلم أو بث له. يقطع الطالب الذي غادر الأندلس الشمال الأفريقي ما را ببدنه المتعددة وأهمها القيروان. أخذ العلم على ما شاء من علمائه. ثم يحط رحاله في مصر. ليبحث فيها مدة أكبر يتتلمذ على علمائها. قد يختار من برز منهم في علم هو موضع عنايته فالتألم في مستقبل حياته العلمية يدرس ما تهياً له من علوم سيباً علوم الشريعة واللغة بشكل عام وهي ما لا يستغنى عنه ومن ثم يتجه الطالب إلى التخصص في فرع أو أكثر من هذين البعدين أو إلى علم آخر.

يرحل الطالب من مصر إلى مكة المكرمة فيؤدي فريضة الحج ويدرس على كبار علمائها. ثم يبعث في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام و دار أصحابه واتباعه علماء الأمة. كان المبعوث في

التوسع العلمي في الأندلس

المدينة غالباً ما يكون طويلاً - فهي دار الحديث والسنة وموطن الامام مالك وتلامذته من بعد - هذا يزيد الطالب ترغيباً في البقاء في المدينة لكون الأندلس على مذهب مالك -

يغادر الطالب المدينة المنورة إلى انحاء أخرى من العالم الإسلامي - غالباً يرحل إلى الشام أولاً ثم إلى ما يليه من بلاد الإسلام منتقلاً بين حاضرة ومدنه قاصداً العلماء، أينما وجدوا مستزيداً من العلم - يجد العون والتقدير حيثما وجد بين اخوته - متمتعاً برحلته رغم صعوبات التنقل لبدائية الواسط وبطئها، مادام مخلصاً النية لله تعالى قاصداً وجهه الكريم جل شأنه - وله من رسول الله صلى الله عليه وسلم عون وهو يتمثل قوله:

”من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض الحيتان في جوف الماء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم، فمن أخذه بحظ وافر“^{iv}

تستغرق الرحلة الكثير أو القليل من الوقت، في اثناء رحلته ربما جلس للتدريس بعد الشوط الطويل من طلب العلم - وفي ذات الوقت لا يفتأ يطلب العلم، بل ربما تولى وظائف ادارية أو شرعية علمية خلال رحلته -

هكذا يعود الطالب وقد بلغ مبلغ العلماء بما اكتسبه من علم على علماء عديدين وبما قرأه من كتب وما اكتسبه من معرفة - حاملاً معه ما تيسر له من المصنفات - من هذا تتصفح أهبية الرحلة في نقل العلم والافكار والمعرفة بين بلاد الإسلام - فما اكتسبه العالم من علم يحرص على بثه كما يحرص على طلبه - يقاطر عليه طلاب مهنيين بأبابه مستمعين لحديثه طلعين على بضاعته العلم والكتب واقفين على سير - الحركة العلمية في البلاد التي شملتها رحلته الميمونة - إن عودة الطالب من رحلته يحمل العالم والثقافة والكتب، أهم وسيلة ضيقت الشقة في المستوى العلمي العالم للحركة العلمية بين الأندلس والعالم الإسلامي وعبرت التوحيد في أسسه ومظاهره -

النظر فيما انتجه الحركة العلمية الإسلامية من نتاج خصب في التاريخ واجغرافية واللغة وغيرها يظهر أن المؤرخ واجغرافي واللغوي كان مسلماً في نظرته الشاملة إلى بلاد الإسلام في رقعتها الجغرافية وأحداثها التاريخية وحركتها العلمية- فالمؤرخ الأندلسي يؤرخ للعالم الإسلامي مثلما يؤرخ للأندلس، والجغرافي الأندلسي يصف جزيرة العرب والجزائر الشرقية مثلما يصف الأندلس وهكذا- لا يقلل من أهية هذا وجود مصنفات تؤرخ لمدينة أوريقة جغرافية إسلامية معينة أو تتحدث عن أدبائها- فلم تكن هذه التأليف تحمل النظرة الاقليمية وانبأمت على مناقشة في الفضل وكانت سبيلا سهل رصد وتسجيل نشاط المجتمع الإسلامي في كل ميادين- هكذا تتضح أهية ظاهرة ظاهرة التوحد المتأصلة في الحركة العلمية الإسلامية، تأصل العقيدة الإسلامية عند المسلمين في انباء الحياة العلمية في الأندلس والعالم الإسلامي-

فأمراء خلفاء الأندلس وأمراء الطوائف معظمهم من العلماء أو محب للعلم والأدب- تعاطوا العلم والأدب وشجعوا أهله بتفاوت وبينهم وبأشكال مختلفة- هنا بعض الامثلة التي توضح جوانب من هذا الدور: مثل عبد الرحمن الأوسط كان ذا حظ من الأدب والفقه وحفظ القرآن ورواية الحديث وعلم والفلسفة، يقول ابن عبدربه:

”أندى الناس كفاً، وأكرمهم عطفاً، وأوسعهم فضلاً“^v

كان خليفة العالم حكم المستنصر مفرط الحب بالعلوم أثر أهلها منذ عهد أبيه- وجمع من المصنفات في أنواع العلوم وبزل في سبيلها الكثير حتى تهيأت له مكتبة اشتملت على النفائس في كل علم-^{vi} بين هذا مبلغ علم المستنصر وحب له- كان مجاهد عامري أيضاً مشجعاً للحركة العلمية وكان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق عليهم الأموال فكانوا يقصدونه ويقينون عنده فكثروا في بلاده-^{vii}

وللعلم احترام كبير عند الأندلسيون واتخذ العلماء من بيتهم مكاناً لنشاط العلمي و هناك علماء خرجون ويدرسون في حلقاتهم في المساجد، وإذا كان المرض والشيخوخة يمنعان العالم عن الخروج من منزله فيستقبل الطلاب لديه- وتفاوت عدد الطلبة الذين استقبلهم العالم

التوسع العلمي في الأندلس

في دارة في كل مرة- تبعاً لشهرته العلمية واستعدادة لاستقبالهم، تتجاوز عددهم بعض الأحيان فوق الأربعين طالباً- وكان مستواهم العلمي على قدر يمثل "المرحلة الثانية" من مراحل التعليم في الأندلس وهي التي تلي مرحلة التعليم المكتبي والتأديب "المرحلة الأولى" viii

إن هذا الخبر ذو دلالات عدة منها أنه يمثل صورة من صور النمون الذي وصل إليه التعليم في الأندلس وفي بيت العالم الأندلسي- وييشير ولو من بعيد إلى أن الحركة العلمية في الأندلس غدت من النمو بحيث تطلعت إلى مؤسسة علمية جديدة تقف مع المسجد في أداء مهمته العلمية- وربما الرغبة الصادقة في بث العلم جعلت العالم يتجنب أخذ الأجر على التدريس في العيوس- بل هناك بعض العلماء قدم لتلامذته كل يوم وعددهم نيفاً على أربعين وجبة غذاء في دارة فضلاً عن تهيئة المكان مناسب لا استقبالهم- وهذا على ما يبدو ويسر حالتهم المادية-

إن ما عرف من اساليب تعليمية في المسجد وجد ما يماثل منظماً في دار العالم الأندلسي لتمثيل المرحلة التعليمية لكلا المؤسستين- ويتوقع أن معظم علوم العصر وقتئذ كان لها نشاط في دار العالم الأندلسي- من دراسة وتدريس وبحث وتجربة وتأليف- وأسهمت دور العلماء بنصيب وافر في نشر العلم والثقافة على أعلى المستويات في الأندلس- وجاءت كما يظهر بعد المساجد هذه المهمة- ولم تكن مهمة العالم تعليمية فحسب بل كانت تهذيبية في ذات الوقت- وهذا امتداد لما وجد في "المرحلة الأولى" من مراحل التعليم- فالتربية والتعليم لا يفترقان في التعليم الإسلامي- والعالم قدوة للطالبة في سلوكه-

لم ترتبط الحياة العلمية الإسلامية عامة بنظم مقيدة، بل كانت حرة في مؤسساتها ونشاطاتها المختلفة- فالمؤسسات العلمية المختلفة ونشاطاتها المتنوعة كانت حرة من توجيه الحكومة إلا ما ينشأ فيها من أعرف تصيغها أسس الحياة العلمية والحاجة والتطور المنسجم مع الاساس-

تعتبر المكتبات من المؤسسات المهمة التي تسهم في خدمة وانهاض الحركة العلمية والثقافية في المجتمع وهي ظاهرة حضارية متقدمة تعبر عن رقي المجتمع واهتمام افراده بالكتاب وشغفهم به، قراءة وتاليفاً وما يتعلق بهذا من عناية بالكتاب من نسخ والكتب وبذل- يمكن القول

أن الأندلس عرفت نوعين من المكتبات: الخاصة والعامة. ويتوقع أن كل مسجد من مساجد الأندلس كان يضم مكتبة صغيرة أو كبيرة وخاصة المساجد الجامعة. لأن المسجد في الأندلس كان المكان الأول للنشاط العلمي، وهذا يتطلب وجود مكتبة تسهل ذلك النشاط.

إن مصدر كتب هذا النوع من المكتبات بالدرجة الأولى هو ما أوقفه العلماء من مكتبات أو كتب على المساجد سواء في حياتهم أو حينما دنت وفاتهم، لينتفع بها أكبر عدد من الناس، وأوقف بعض العلماء كتبه في منازل خاصة. ومولت الحكومة على ما يبدو المكتبات بالكتب وخاصة على عهد الأمراء والخلفاء الذين عرف عنهم الحب للكتاب. ويحتمل أن بعض أصحاب اليسار اشترى بالكتب وأوقفها على المساجد تشجيعاً لطلبة العلم. وكان الدافع هو الجوال العلمي للمجتمع الأندلسي وفي كل حالات الوقت كان الموقف ينبغي رضا الله تعالى وحسن ثوابه.

ولا يعرف عن هذه المكتبات فيما يخص العاية بها ونظام الاعارة وواضح أن هذه المكتبات كانت أكثر عمومية من النوع الآخر من المكتبات العامة ومكتبات القصور، من حيث امكان استفادة الناس منها. ومكتبات القصور يقصد بها ما انشأه حكام الأندلس من مكتبات في قصور و دور الحكومة لرعاية الحياة العلمية وتعتبر عامة لأنها كنات مفتوحة لكبار العلماء والأدبا خاصة اضافة إلى رجال الحكومة ومن يتصل بهم. وهي بهذا دون مكتبات المساجد في عموميتها ix

ربما كان في الأندلس نوع من المكتبات العامة غير التي في المساجد وقصور الحكم، وهي المكتبات المستقلة بعبارات خاصة بها. والمكتبات العامة مقيدة أو مطلقة ليس من الضروري أن تكون انشاء الدولة فمكتبات المساجد وبعض العلماء لا دخل للدولة فيها عدا اسها مها في بعض مكتبات المساجد كما هو متوقع، مما جعل عدد المكتبات العامة يتضاعف في الأندلس.

يظهر أن المكتبات الخاصة كانت منتشرة بشكل كبير، وبطبيعة الحال فهي تفوق جدا عددا لمكتبات العامة، بل إن من هذه المكتبات الخاصة لكثرة محتوياتها من الكتب وفرط عناية بها كانت لها مكانة خاصة بترتيب معين. ونذكر من هذه المكتبات مكتبة القاضي ابن فطيس ابي المطرف عبد الرحمن ابن محمد الذي من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين ---، جمع من

التوسع العلمي في الأندلس

الكتب في أنواع العلم ما لم يجبعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان قدر تب لهم على ذلك راتباً معلوماً وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من النسا طلبه للابتياح منه وإبالغ في ثمنه - فإن قدر على ابتياحه والانتسخه منه ورده عليه -^x أما عن بناء تلك المكتبة فقد وضع تصمييه بحيث يسمع برؤية جميع خزائن الكتب من مكان معين، وطل مدخل المكتبة وسقفها وجدرانها وشرفتها والوسائد والوثيرة والأبسطة باللون الأخضر “ وفي ذلك يقول أبو الحسن النباهي:

”كان له بداره مجلس عجيب‘ الصنعة، حسن الآلة، ملبس كله بالخضرة، جدرانه وابوابه‘ وسقفه وفرشرة وستوره ونبارقه وكل ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها، وبهذا المجلس كان آنسه وخلوته - رحمه الله -“^{xi}

وقد عين (ابن فطيس) لهذه المكتبة اميناً أو حافظاً هو من أفاضل الأدباء، وجعل لها فهارس منظمة، وكان يعد اعادة الكتاب بمثابة فقدانة لذلك كان لا يعير كتاباً من أصول البتة، وكان إذا سأله احد ذلك والحف عليه اعطاه للناسخ فنسخه وقبله ودفعه إلى مستعير فإن صرفه والتركه عنده، وقد اعتبر امكتبة ابن فطيس أكبر مكتبة في قرطبة باستثناء مكتبة الخليفة الحكم المستنصر^{xii}

لقد اشتهر من أصحاب المكتبات الاغنياء والفقراء في الأندلس فإذا كان ابن فطيس المذكور يمثل الشخص الذي يملك الثروة كبيرة والمنزلة عالية، فينفق على شراء الكتب والعناية بمكتبته، كذلك وجد اناس ذوي دخل محدود يعيشون على كد أيديهم جمعوا من الكتب الكثير، فمحمد بن حزم لم يكن قبله اجمع للدواوين منه، ولا أصبر على الكتاب ولا ادمر على النظر -^{xiii}

اسهمت المكتبات الخاصة اسهاماً كبيراً في تسهيل نمو الحركة العلمية، لكثرة اعدادها ولا مكان افادة طلاب العلم منها سواء بالاعارة من أصحابها أو بالتتليذ على يد اصحابها العلماء والعالمات، الذين كانوا دائمي التزود من المؤلفات التي تضمها مكتباتهم - وهياً استقبال العلماء للطلاب في دورهم الفرصة ليطلعوا على ما احتوته مكتبات شيوخهم -

عرفت الأندلس بجمال بيئتها الجغرافية وازدثت جهود المسلمين في الري والزراعة على تلك البيئة الخصب والخير، الجمال، فكانت البساتين والحقول والضياع النضرة تخترقها الأنهار والسواقي تحف بمدن الأندلس وتتخلها. عمل بعض الادباء وتتخلها. عمل بعض الدباء والعلماء من أهل تلك المدن في الضياع الجنان التي يملكونها. وطبيعي أن تشهد ضياع العلماء وجنائهم نشاطاً علمياً وادبياً مادام ذلك العالم يقضي شطراً من وقته فيها، في العمل للكسب، أو النزهة أو لكيهما، ومادام التعليم لم يعرف التقنين، والطلاب يحرصون على الانتفاع العلمي والاساتذة لا يبخلون بعلمهم، فحري أن تشهد تلك البقاع الجميلة الباعثة على السرور صوراً من النشاط الأدبي والعلمي. وأخذ بعض العلماء المهتمين بعلم الفلاحة الجنان مختبرات عقلية لتجاربهم العلمية على التربة والنباتات.

اهتم الأندلسيون بأنشاء المتفرجات أو المتنزهات، فالنفوس يسرها الماء والخضرة والمشاهد الجميلة، إذ يبحث فيها مزيداً من النشاط بعد التعب، والصفاء بعد الكدر. وإذا كان هذا متوفراً في الحقول فلم تنقل صوراً منه إلى وسط المدن، لتكون قريبة على الناس، ويزرع فيها من الازهار والورود ما يسر الناظر ويبهج النفوس. فكانت المتنزهات مكاناً للنزهة والراحة، يجد الناس في ظلها الوارفة ومياها المتدفقة ونافوراتها الجميابة واطيارها المغردة ما يشيع في النفس الراحة والحبور. ووفر الأندلسيون في هذه المتنزهات المصاطب لراحة البدن والمكتبات لرياضة الفكر. شهدت تلك المتنزهات جلسات للشعراء والادباء والعلماء. قام افراد المجتمع بأنشاء المكتبات الاهلية وفي وقت مبكر عن المكتبات الحكومية التي أنشأها الدولة بينما الاهلية منتشرة في الأندلس، كانت الحكومية في قرطبة بالدرجة الاولى. وفي الوقت الذي تكفلت الحكومة بالانفاق على كل ما تحتاجه مكاتبها، دفع الآباء تكاليف المكتبات الاهلية المعلمين، لقاء تعليمهم لأولادهم، عوض عن أتعابهم وأجر إشغال المكان في بيوتهم. حيث غالب أن تكون الاهلية ضمن بيوت المعلمين، بينما كانت الحكومية حول المساجد بعمارة مستقلة تماماً. كان للحكومة توجيه عام لمكاتبها، إذ هي المنفعة عليها بينما استأثر الآباء والمعلمون في توجيه سياسة التعليم في المكتبات الأهلية جملة تفصيلاً.

التوسع العلمي في الأندلس

قد كان للكتاب في الأندلس مورد عدة أولها تاريخياً ما حمل اليه من العالم الإسلامي وما ألف فيه وما ورد من غير العالم الإسلامي. شارك الرحالة الأندلسيون من علماء وطلاب مشاركة فعالة في نقل ما يظهر من كتب في العالم الإسلامي إلى الأندلس وبعضهم تاجر بالكتب فنقلها من البلد الذي تنوفر فيه إلى حيث الطلب عليها وقد لا تقتصر تجارتهم على الكتب وتجارة بالكتاب خدمة كبرى للحركة العلمية.

الحكم المستنصر كان حريصاً على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الاقطار والبلدان ويبذل في علاقاتها ودفاترها النفس الأثمان ونفق ذلك لديه، فحملت من كل جهة اليه، والملك السوق، ما نفق فيها جلب اليها حتى غصت بها بيوته وضائق عنها خزائنه.^{xiv}

ألف الأندلسيون في شتى العلوم، وامتازت مؤلفات العديد منهم بالغزارة والاصالة والتنوع وغاية القول أن الأندلسيين لم يتركوا حقلاً من حقول المعرفة الا طرقوه فدرسوه وألفوا فيه الكتب الحسان، التي ارتقى مستوى بعضها إلى غاية الاصالة والابداع والجودة والاتقان والسبق وجاء هذا تدريجياً وبعد نمو مستمر في بناء الحياة العلمية.

إن عرف الأندلسيون التخصص من وقت مبكر ولكن في ميادين العلوم الشرعية واللغوية. أما التخصص في الجغرافية والفلسفة والطب النبات وما اليها فهو الجديد في الأندلس ووصل التخصص إلى ذروته في العلوم التي عرف الأندلسيون الا نقطاع اليها من قبل. يدل على انتشار العلم والثقافة في صفوف المجتمع الأندلسي بشكل كبير كثرة العلماء الاعلام - فاية مدينة لواحصي علماءها في عصر واحد مهما كانت صغيرة لكان عندهم قائمة طويلة - ونظرة فيما لدينا من كتب تراجم تطلعنا على هذا زخرت قرطبة بالعلماء في عصر الخلافة، ذكر ابن خطيب مثلاً اسماء حوالي (138) عالماً من علماء قرطبة الشهيرين الذين حضروا عهد بيعة هشام بن حكم المستنصر في سنة 366هـ ووصفهم بأنهم "هضاب راسية" وبحار في العلم زاخرة واعلام قولهم مسعود^{xv} -

ومن الأمور التي تدل على وفرة العلماء بقرطبة وقتئذ ما ذكر أن المنتصر بالله (الحكم المستنصر) أمر ونادى في أزقة قرطبة الا يتعمم رجل لا يحمل البدونة حفظاً وفقهاً. يقال: فتعمم

فيها ثلاثة مائة رجل ونيف - فما ظنك بغيرها من العلوم الفنون - ولم تكن قرطبة وحدها تستأثر بذلك المستوى الرفيع في العلم والثقافة بل توفر ولو بشكل أقل خاصة قبل سقوط الخلافة في سائر الأندلس - مما شجع على التأليف الرغبة الأصلية لدى العالم في نشر علمه وإفادة الناس منه، الذين كانوا في ذات الوقت خير مشجع للعلماء في التجاهلهم نحو التأليف بأقبالهم على القراءة ورغبة في التزود من العلم - وكانت الحكومة الأندلسية هي الأخرى عنصر تشجيع وتلك الرعاية اشكالا متعددة - ونخص هنا بالذكر الخليفة العالم الحكم المستنصر الذي كان يقترح على العلماء أن يؤلفوا، وقدم العديد منهم ما جادت به أفكارهم إلى الحكم الذي اغدق على الجميع سواء من الأندلسيين أو من اتصل به من العلماء من خارج الأندلس من كبير التقدير والإغزاز والعطاء ما غذى مسيرة العلماء في أعمال الفكر والانطلاق الحر في رحاب العلم الواسعة الممتعة^{xvi} -

كانت تلك الرعاية أصلية ولغاية واحدة لا غيرها هي تهيئة المزيد من الأجواء المناسبة للحركة العلمية التي هيأها المجتمع الإسلامي لتنفيذ في ابداعها وعطائها - وليقدم أولئك العلماء لاجتماعهم نتاجاً طيباً وزاداً نافعا يغذى العقول ويهذب النفوس آخذا بيد المجتمع نحو العلا والرقى القائم على دعائم واركان ثابتة مكيئة دافعة -

مما وفر عدد النسخ الكتاب الواحد ازدهار صناعة الوراقاة في الأندلس - حيث تولى الوراقون ومنهم من عمل في مكتبات خاصة أو عامة أو عند الدولة نسخ ما ظهر من مؤلفات بنسخ عدة حسب اقبال الناس عليها - وكما الذين اشتغلوا بالعلم من علماء وطلبة كانوا ينسخون الكتب وكان شأن كل هذا أن أثري المكتبات وجعل الكتب اندلسية وغيرها سهلة التنقل ميسورة الحصول - المتوفر ذكره مما ورد الأندلس من كتب غير العالم الإسلامي بشكل مباشر قليل وفي مناسبات معينة -

إن نسخ الكتاب في الأندلس لم يكن ليقصر على الوراقين الذين كانت صنعتهم الوراقاة بل تعداهم إلى كل ذوي الاهتمام العلمي - ومما يتصل بالنسخ والخط، فكان للأندلسيين خط متميز أثر على خط في عدوة المغرب وافريقية^{xvii} - ولقد تفنن الأندلسيين في خط وتأنقوا بتجويده، وليس ذلك بالنسبة للوراقين والوراقات، لانه مهنتهم بل بالنسبة للآخرين - الخط والنسخ تردى في عصور

التوسع العلمي في الأندلس

تألية“ وصارت الكتب إذا انسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر، ووقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول^{xviii} ويفيد النص المتقدم في دراسة وتحديد خطوط المخطوطات الأندلسية التي وصلتنا.

لقد كان المسلمون في اسبانيا شعباً متطوراً يعمل لزيادة التقدم عن طريق متابعة من كانوا أسى منه حضارة ومعرفة، وعلماء والطلاب أندلسيين سافروا للعراق والشام و مصر والحجاز وفارس الهند وخراسان بحثاً عن العلم والمتعلمين وكانت الرحلات في طلب العلم وبقاء الأساتذة الكبار عرفاً حميداً سائداً في عالم المسلمين، في كل عصورهم، وكانت من اقوى الأسباب التي أعانت على خلق البيئة الثقافية والواسعة بين كل الناس، ثم كان هناك أساتذة من الشرق ذهبوا للأندلس ينشرون العلم ويعرضون الجديد من بحوثهم ويبحثون عن الكسب في بلاد الإغراء المال المثير وكانت حركة المنافسة عميقة ومغرية في كل مكان يحكم فيه المسلمون وتظهر فيه آثارهم. فكان العباسيون في الشرق وكانت في بغداد في الغرب كان الأمويون وكانت قرطبة وفي الشرق كان للمنصور والرشيد والمأمون وفي المغرب كان الناصر والمستنصر وكل هؤلاء كانت لهم شهرة عريضة في الاهتمام بالعلم وبتطور الفكر والحياة.

ومعنى هذا وجود اتصال مباشر بين البلاد الأندلس البعيدة بين بلاد الشرق المتحضرة ومعنى هذا أيضاً أن العرب في أوروبا رفعوا الموت بعدم الانقطاع عن التلامذة على نوابع الفكر العربي في كل بلاد المسلمين ورغم أن بلاد الأندلس كانت بعيدة قلب العالم الإسلامي إلا أن تراث هذا العالم كان يتدفق عليها من كل مكان وفي شتى العصور حتى تأصل فيها هذا التراث ووعته. والكلام كثيرة عرب، مجالات التنافس الثقافي بين قرطبة وبغداد والقاهرة وعن رحلات العلماء المسلمين إلى كل مكان بالشرق والغرب وعن أثمان الكتب القيية والبحث عنها وعن مدى الإغراءات العلمية والأدبية المعروفة على المتعلمين هناك وعن الحياة الناعمة التي كانت مهتية للمثقفين في بلاد المسلمين ولذلك تقدمت لهم الحياة وتقدموا هم بالحياة وظهر منهم علماء كثيرون يمتازون في

جميع جوانب الفكر، منهم الأدباء والشعراء الفلاسفة الفقهاء اللغويين والأطباء والكيميائيون المهندسون المؤرخون وخبراء الزراعة والنبات الحيوان وغيرهم، وربما كانت النسبة لمن يعرفون القراءة والكتابة في بلاد الأندلس الإسلامية عالية إلى درجة لم تكن معروفة في أوروبا في عصور الوسطى ولم تكن معروفة أيضاً في بلاد المسلمين غير الأندلس.

وكانت هناك عناصر نشيطة من غير المسلمين نقلت حضارة العرب والمسلمين لبلاد الشمال أولبلاد التي كانت غير خاضعة للسلطان المسلمين بالأندلس ومن هذه العناصر المستعربون المسيحيون الذي كانوا يهاجرون من الأندلس للأراضي المسيحية أو الذين بقوا في أماكنهم بعد زوال لسلطان العرب السياسي والعسكري من أوروبا، ومنها المدجنون المسلمون الذي اضطروا للعيش تحت راية المسيحيين وجماعات أخرى شاركت في حركة التفاعل الحضاري وسيرت الاتصال بين الحياة الإسلامية والحياة المسيحية وأعانت على بقاء حضارة المسلمين في اسبانياً زمناً طويلاً وقد تجلت مظاهر تأثير هذه الحضارة في الحياة العامة والخاصة وفي التقاليد واللغة والأدب والفنون والصناعات والزراعة والتجارة والتربية والموسيقى وغيرها.^{xix}

نعم العالم الإسلامي بوحدة ثقافية تهيأت لها كل الأسباب حتى في ظل الانقسامات السياسية الظاهرة، فلم يعرف الحدود المصطنعة التي تحد بشكل أو بآخر من حرية انتقال المسلم في بلاد الاسلام- فكان العالم والطالب والكتّاب ينتقل بكل حرية في الرقعة الممتدة من السواحل الاطلسي إلى آواسط آسيا- فكان من نتائج ذلك أن تسمت الحركة العلمية بسمات اهبها التوحد في الأسس والمقومات والاشتراك في كثير من المظاهر- لذلك كانت الصلات العلمية بين ارجاء العالم الإسلامي وطيدة اكسبت الحياة العلمية نماء وتطور لرا وازدهارا، واضفت عليها النظرة الشاملة والافادة من خبرات وجهود العالم لمسلم أينما كان-

كانت الرحلة في طلب العلم من ابرز وجوه الصلات العلمية- حملت التأثير ووطدت التوحد- فقد أصبحت الرحلة عرفاً علمياً إسلامياً مثل فيها الطالب دورة في نقل العلم وتقريب الأفكار وتهيئة الاسباب للافادة المتبادلة- إن وفود العلماء من العالم الإسلامي والأندلس يعد مظهراً غاية

التوسع العلمي في الأندلس

في الأهمية في تعزيز الصلات وتعميق التأثير - لا يبدو وانه بالامكان اعتبار انتقال العالم من مكان إلى آخر ضمن الرحلة، التي هي للطالب، وأن كان العالم المسلم لا يكف عن الاستزادة من العلم هناك أسباب أخرى في تعزيز الصلات واحداث التأثيرات المتبادلة منها لتاجر والحاج المسافر - وتبرز أهمية هذه الوسائل على أقل تقدير في نقل الكتب من مكان لآخر - ويمكن القول أن الرحلة مهما كانت غايتها فهي لا تكاد تخلو من طلب العلم أو بثته -

قامت صلات علمية بين الأندلس والعالم الإسلامي - فقد وجد الطالب الأندلسي أن العالم الإسلامي لا سيما شرقه منار العلم - فشدوا الرحال إليه ، لينهلوا من العلم ما ظهر لهم ، على بعد المسافة وبداءة الوساطة - فحب العلم وادراك أهمية وأهدافه وثوابه، تجعل كل صعب سهلا وكل نصب راحة -^{xx} - وهم يعلمون أنهم أينما وحيثما القوار حال سفرهم فهم بين اخوانهم يجدون العون والأقراء والتشجيع - ويجدون لغة مشتركة تسهل التفاهم واعرافا تكاد تكون واحدة، وفي ذات الوقت كانت الرحلة التي تقصر أو تطول فائدة أية فائدة - علو وتجربة واتساع أفق، وشعور بالعزة والكرامة، عندما يجد الطالب أن عالمه الإسلامي أوسع من مدينته وأكبر من بلده، وهو زاخر بالنشاط العلمي والاجتماعي خاصة في حواضره الرئيسية كلقيروان ومصر والمدينة المنورة ودمشق البصرة الكوفة وبغداد وسمرقند وبخارى - قد لا يقتصر الطالب على رحلته واحدة في عمره حتى وان بلغ درجة من العلم فالطالب والعالم دائما في طالب للعلم بل ان حياتهما تدور في فلكه -

أمر متوقع أن تبدأ الصلات العلمية من الأندلس صوب العالم الإسلامي - الا أن النشاط الحركة العلمية الإسلامية واتساع دائرتها وتعدد مراكزها أدى إلى انسياح العلماء في انحاء البلاد الإسلامية يحدوهم الامل في نيل ثواب إيصال العلم وبثه وخاصة في الاماكن التي لم يبرز فيها علماء المشهورون - وقد استقبلت الأندلس العديد من العلماء والأدباء والشعراء الذين حظى عدد منهم بالمنزلة والتشجيع من ولاية الامر وأفادوا الحركة العلمية فيها كل مجال اهتمامه -

يمكن القول إن العالم وكذا الطالب المسلم الذي كان يفد أو يقصد الأندلس من أي مكان كان منشأه لم تكن ثقافته تقتصر على ما وجد في بلده بل تبثل ثقافته مزيجا مما سبعه وراة وقرأه في

كل البلاد التي مربها حتى حظ رحاله بالأندلس وهكذا كان التشابك والتداخل بين فروع شجرة الحركة العلمية الإسلامية التي تقوم على ساق واحدة تنهل من معين واحد- فكانت ثمارها طيبة في كل اغصانها وما كان لغصن أن يحمل مثل تلك الثمار الطيبة لو كان منقطعاً عن شجرة-

كان شأن الفتنة التي ابتليت بها قرطبة والتي انتهت بسقوط الخلافة، ان تأتي على الاستقرار الهدوء، الذي نعمت فيه الحياة العلمية في حاضرة الأندلس- فكان من المظاهر التي اسفرت عنها الفتنة، هجرة العديد من علماء قرطبة إلى انحاء من الأندلس، فجاء نصيب بلنسية من ذلك وافرا- ان الاحداث الطارئة وما يتمخص عنها لا تمثل السير الاعتيادي للامور، فيمكن عد الانتقال العلماء من قرطبة إلى بلنسية "هجرة علمية" كان تأثيرها على الحركة العلمية في بلنسية كثيراً-

استقبلت بلنسية من كبار علماء قرطبة الذين يعدون كبار علماء الأندلس- فكان لهم تأثيرهم على نمو الحركة باعتبارهم يمثلون مستوى الحركة العلمية التي بلغت قرطبة ذروتها وقتذاك- ولم يكن العالم الأندلسي أو القرطبي الذي حل بلنسية فائماً المستقرار بها- ويبدو انها ظاهرة شارك فيها العلماء الآخرون في المدن الأخرى فليس من السهل على العالم واسرته ان يجد مكاناً مناسباً للسكن من الجوانب المتعددة. بعد أن غادر المكان الذي آواه سنيماً- كان في تنقل العلماء ذاك فائدة للحركة العلمية، فلم يتوان العالم عن اداء واجبه في بث العلم، فهو اساسي في حياته- ولم تكن الاحداث التي اجتاحت قرطبة العاصفة في انهاؤها لوحدة الأندلس السياسية- الا انها لم تترك ما يوازي هذه المساويء على مسار الحركة العلمية- فقد جدت ظروف وتهيأت اسباب كانت عوامل مشجعة عوضت الحركة العلمية عما تركته العاصفة من آثار سيئة عليها لم تستمر الا قليلاً من الوقت-

أما صلات الأندلس مع العالم النصراني واضحة ويمكن تلمس التأثير العلمي على المحدوديته، مثل اقامة القمبيطور وبعض أفراد أسرته وجبايته من القشتاليين في بلنسية وبين المسلمين في الأندلس يمكن ان يجعل منهم ناقلين لبعض ما عند المسلمين حتى قبل دخوله بلنسية-^{xxi} وكان كما زعموا تدرس بين يديه الكتب وتقرأ عليه سير العرب-^{xxii} وإذا كان مات في

التوسع العلمي في الأندلس

بلنسية قبل عودته إلى قشتالة فإن بعض أفراد أسرته وأعوانه الذين كانوا على صلة مما كان في بلنسية عادوا إلى بلادهم، فلا بد أنهم حملوا معهم مما يتصل بالعلم والأدب في الأندلس وفي بلنسية وبين المسلمين في الأندلس يمكن ان يجعل منهم ناقلين لبعض ما عند المسلمين حتى قبل دخوله بلنسية^{xxiii} وكان كما زعموا تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب^{xxiv} وإذا كان مات في بلنسية قبل عودته إلى قشتالة فإن بعض أفراد أسرته وأعوانه الذين كانوا على صلة مما كان في بلنسية عادوا إلى بلادهم، فلا بد أنهم حملوا معهم مما يتصل بالعلم والأدب في الأندلس وفي بلنسية.

هكذا أراد أصحاب الدعوة الإسلام في إسبانيا الأوروبية أن يشاركو السكان حياتهم العادية وأن يمارسوا بينهم وسائلهم الخاصة في السلوك المحاط بواجب الطاعة لتعاليم الدين وأوامره وكانوا يشيرون فيهم المعالم الأساسية لحضارتهم المتقدمة حتى نجحوا مع الزمن والعمل في تحريك الجهود المتعاونة لبناء حضارة أندلسية لها ذكر عظيم بين الحضارات العالمية المشهورة.

الحواشي

- i عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا وبرتغال: ص 354، القاهرة 1956م -
- ii S. Imamuddin, "andalus" Journal of the Asiatic Society, Karachi (Pakistan) No 12, p111-112
- iii ابن بسام، الذخيرة: 2/1. تحقيق جامعة القاهرة ترجمه والنشر 1975م -
- iv حديث شريف، سنن أبي داود: 285/2; سنن ابن ماجة: 82/1; سنن ترمذي: 325/7.
- v ابن عبد ربة، العقد الفريد: 218/8. القاهرة 1665 م، دمشق 1953م -
- vi النظر: صاعد، طبقات الأمم: ص 86؛ المقري، نفح الطيب: 395/1.
- vii العذاري، البيان المغرب: 2.256/3. بيروت 1967م -
- viii ابن بشكوال، الصلة: 36/1. تحقيق كوديرا مصر 1966م -
- ix خوليان ريبوا، المكتبات: ص: 91. القاهرة 1958م -
- x ابن بشكوال، م - ن: 310/1:
- xi النبأهي، تاريخ قضاة الأندلس: ص 88. بيروت 1938م -
- xii خوليان ريبوا، المكتبات: ص 91.
- xiii ابن الأبار، التكملة: 385/1. مدريد 1887م -
- xiv ابن الأبار، الحلة السيرة: 201200/1؛ ابن خلدون، العبر: 317/4. بيروت 1967م -
- xv ابن الخطيب، الأعلام: ص 48. بيروت 1973م -
- xvi لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا: ص 28. القاهرة 1958م -
- xvii ابن خلدون، العبر: 661/3.
- xviii ابن خلدون، م - ن: 367/3.
- xix علي حبيبة، مع المسلمين في الأندلس: ص 351. القاهرة 1972م -
- xx لطفي عبد البديع، م - ن: ص 196.
- xxi لطفي عبد البديع، م - ن: ص 194.
- xxii ابن بسام، م - ن: 49/3.
- xxiii أيضاً -
- xxiv ابن خلدون، العبر: 961/3.